تأصيل العلوم الإنسانية: المفهوم والمشكلات

Authentication of the humanities: concept and problems

محمد مكاكي [1]
جامعة خميس مليانة (الجزائر)

الاستلام: 26- 05-2022 القبول: 03-07-2022

ملخص:

تسعى هذه الورقات إلى معاينة الإشكالات المترتبة عن إرادة تأصيل العلوم الإنسانية في الثقافة العربية، وهذا الصنيع المعرفي يعد نوعا من وضع ملامح نظرية لإبستمولوجيا عربية قادرة على انتاج معرفة تتملك الحد الأمثل من الخصوصيات الحضارية للأمة العربية والإسلامية.

إن المحولات التأصيلية التي خاضها عدد غير قليل من الدارسين العرب لم تنج من العراقيل المعرفية والتاريخية رغم مشروعية طموحها المعرفي، وفي سبيل بيان هذه المحاولات العلوم الانسانية وما يعترض سبيلها من إشكالات كانت هذه الورقات.

كلمات مفتاحية: التأصيل، العلوم الإنسانية، أسلمة المعرفة، المثاقفة

Abstract

These papers seek to examine the totality of the problems arising from the will to root and cultivate the humanities in the Arab cultural soil, and this knowledge work is itself a kind of developing theoretical features of an Arab epistemology capable of producing knowledge that possesses the optimal extent of the civilizational particularities of the Arab and Islamic nation.

These obstacles and challenges may have been a reason to dismiss them by other researchers, who saw it as a miserable and desperate attempt that lacks the themes of modern science by virtue of its foundation mainly on the Arab heritage reference, in addition to being trying to establish knowledge that is not only being neutral but trying to make the current achievements of the components of knowledge in the modernist and post-modernist stage.

Keywords:
authentication; acculturation; Arab epistemology; foundation; humanities; islamization

المؤلف المراسل: محمد مكاكي، **الإيميل:** mekaki.2012@gmail.com

مقدمة.

يقتضي البحث في سؤال تأصيل العلوم الإنسانية والاجتماعية الانطلاق من بعض الإشارات التي تبدو لنا ضرورية لتحديد ملامح الإشكالات المترتبة عن هذا السلوك المعرفي، وذلك من طراز الإشارة إلى اختلاف العوامل التي أدت إلى نشوء تلك العلوم في بيئاتها الغربية الأصل عن العوامل التي صاحبت نشوءها في البيئات العربية، إذ «لم ينشأ البحث في الظواهر الإنسانية بالآليات والوسائل العلمية في العالم العربي مثلما حصل في التاريخ الغربي بفعل عملية تاريخية ذاتية، موصولة بصيرورة في النظر إلى هذه الظواهر ضمن سياق تطور الأفكار والعلوم وتطور المجتمعات، قدر ما نشأ في سياق عملية تقليد أفرزتها متغيرات خارجية وافدة «(عبداللطيف، 1999، صفحة 01)

ومن الجدير بالذكر، الإشارة أيضا إلى أن النشأة الأوربية للعلوم الاجتماعية والإنسانية ارتبطت ارتباطا وثيقا بمنظور استعلائي استعماري للأخر من قبل الأوربيين، هو المنظور الذي ألقى بظلاله على الأدوات المنهجية والأهداف المسطرة لهذه العلوم، مثلما تشير إليه بعض الدراسات، الشيء الذي ولد لدي المشتغلين العرب بحقل العلوم الاجتماعية والإنسانية نوعا من تكريس هذا المنظور بعيدا عن سبل النقد التي يفترض أن ينظر بها إلى مباضع تجريبية وافدة.

ورغم أن الدراسات الأولى التي أنجزت في سياق البحوث العربية اجتماعيا وانسانيا حققت من التراكم ما يشكل منجزا لا يستهان به وبنتائجه، إلا أن حجم التحديات التي جابهت مسيرة استنبات علوم اجتماعية وإنسانية في البيئة العربية يرهن كل تلك النتائج ويؤجل الاستفادة منها، إلى الحين الذي يمكن فيه الحديث عن بناء معرفة إنسانية أصيلة.

في مقابل الاستفادة من التطورات التي حققتها العلوم الإنسانية في أوربا واستجلاب النماذج المعرفية لها جاهزة، ظهرت دعوات تنادي بوجوب أن يكون للبحث العربي علومه الإنسانية والاجتماعية الخاصة به، وسؤال الخصوصية هنا متعلق برد هذه العلوم الوافدة بما هي طارئة في الثقافة العربية إلى أصول داخل الثقافة العربية الإسلامية، مما ولد تيارا يمكن تسميته بدعاة التأصيل، قوامه البحث عن سبل تأصيل العلوم الوافدة داخل الثقافة العربية الإسلامية، وهذا البحث لابد سيواجه مشكلات منهجية ومعرفية وجب البحث لها عن حلول.

1. مفهوم التأصيل في الفكر الإسلامي الحديث:

عندما نطال بالبحث مسألة المفهوم عند الإسلاميين تطالعنا مجموعة من المصطلحات التي تتجاور مع التأصيل وتستعمل لنفس الغرض الذي يراد منه وهي التأصيل، التأصيل الإسلامي، إسلامية المعرفة، وأسلمة المعرفة وقد يضيف إليها الباحث أيضا جانبا قد تباعد اصطلاحيا ولكنه يقع في لب دائرة الاشتغال التأصيلي وهو ما يعرف بالإعجاز العلمي، وذلك بالنظر إلى أن أساسه العملي يقوم على افتراض رد المنجزات العلمية إلى القرآن الكريم رغم كل ما يحيط بذلك من أسئلة، أما حين يخرج التأصيل عن دائرة الفكر الإسلامي، فأغلب المعتنين به يقتصرون على التأصيل والتأثيل بدرجة أقل .

ويمكن القول ونحن في معرض الحديث عن مصطلح التأصيل أنه لا يزال مادة خصبة للدراسة وذلك من حيث قلة الدراسات التي سخرت نفسها لمباحثته مستعملة المصطلح ذاته، أي أنها جعلت منه موضوعا في حد ذاته، وهذه الدراسات تصدر في أغلبها عن توجه فكري إسلامي بارز، يمكن الوقوف على أهم ما اطلعنا عليه منها فيمايلي :

- دراسة الأستاذ محمد محمود الشاويش، نحو ثقافة تأصيلية – البيان التأصيلي -
- دراسة الدكتور عادل محمد شريح، فكر التأصيل : المنهج والفلسفة .
- دراسة الدكتور محمد قطب، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية .
- دراسة للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر بعنوان: المسلمون وكتابة التاريخ دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ

بالإضافة إلى هذا يمكن أن تمثل الكتب الصادرة عن معهد الفكر الإسلامي - وهي سلسلة "إسلامية المعرفة " - مشروعا فكريا ينحو نحو تفعيل إجرائي لنظرية التأصيل في بعدها الإسلامي، وتشتغل المقدمة التي نشرت كأول أعداد سلسلة المعرفة بمثابة الخطاطة العامة للمشروع وهي بعنوان : إسلامية المعرفة: المبادئ العامة- خطة العمل- الانجازات ، وهو مشروع عام يراد له الإحاطة بجوانب المعرفة وتكييفها تكييفا يتماشى مع الرؤية الإسلامية العامة ، أو بمعنى آخر إعادة إنتاج هذه المعارف وفق منظور إسلامي، ولعل من الميادين المعرفية التي عرفت نشاطا بارزا في هذا المضمار ميدان علم النفس ، وذلك بالنظر إلى كون المشتغلين به وجدوا أنه نشأ نشأة غربية محضة فكان أن حاولوا بحث بعض ملامحه في التراث الإسلامي قبل أن تتوطن الدعوة إلى تكييفه مع تعاليم الإسلام وفق ما عرف بالتأصيل الإسلامي .

ولذلك يمكن أن نضيف الدراسات التي ناقشت إشكاليات تأصيل علم النفس إلى مجموع الدراسات السابقة نظرا لاشتراكهما معا في نفس النسق الثقافي الإسلامي، وفي هذا السياق نشير إلى دراسة هامة قدمها "عبد الله بن ناصر الصبيح" بعنوان التأصيل الإسلامي لعلم النفس(الصبيح، 2002، الصفحات 469-506)وهي دراسة قدمت مسحا للبحوث التي أثيرت حول القضية المدروسة بالإضافة إلى مناقشتها مسألة المصطلح.

ويقدم الباحث عبر هذه الدراسة مجموعة من المصطلحات وجد أنها الأكثر تداولا بين المشتغلين بقضية التأصيل لعلم النفس وهي: علم النفس الإسلامي، أسلمة علم النفس أو إسلامية علم النفس، التأصيل الإسلامي لعلم النفس. التوجيه الإسلامي لعلم النفس، وأخيرا التفسير الإسلامي للسلوك.

إن الذي يهم الباحث هنا ليس كثرة الدراسات بقدر ما يهمه إن كان المفهوم الذي تعطيه للتأصيل متقاربا أم متضاربا، ومدار الأهمية هنا البحث عن تنويعات من شأنها أن تجعل من التأصيل مذاهب تأصيلية تتباين فيما بينها انطلاقا من الأهداف والمرجعيات التي تتكئ عليها، أما إذا كان الأمر لا يعدو مجرد اختلاف المصطلح مع تقارب المفهوم، فإن ذلك في نظرنا ليس إلا اختلافا في التسميات ولا مشاحة في الاصطلاح كما يقال، ولذلك يمكن التعرض لأهم التعريفات التي طالت مصطلح التأصيل ومجاوراته في التالي:

2. التأصيل: المصطلح والمفهوم

يقيم عادل محمد شريح تقابلا بين المفهوم الأصولي لكلمة التأصيل، وما يريده من التأصيل الثقافي، وعنده أن "التأصيل مفهوما ومنهجية، يرتبط بمعنى الأصول في العلوم الإسلامية، هو طريقة في النظر والتقرير يعمد من خلالها الأصوليون إلى رد الأمر إلى أصله، والاحتكام في جميع القضايا إلى أصلي الشريعة الأساسين: القرآن والسنة فالتأصيل بالمعنى الشرعي الفقهي هو رد فرع – حكم فقهي أو مسألة عقدية – إلى أصل هو نص معتمد(شريح، 2011، الصفحات 21-22).

أما المعنى الثقافي الذي يريده من التأصيل فهو» لا يخرج (...) عن هذه المنهجية "(شريح، 2011، صفحة 20) غير أنه يستدرك متسائلا:"لكن ما هو الفرع هنا وما هو الأصل الذي يرد إليه؟ قبل أن يبادر فيجيب قارئه: الفرع هنا على المستوى الثقافي هو الفاعلية الثقافية والممارسة الهادفة إلى تحقيق غاية أجمعت الأطراف على تسميتها النهضة الحضارية للأمة، أما **الأصل الذي ينبغي** لنا أن نرد إليه هذه الفروع والمرجع النظري الذي يجب أن نحتكم إليه في هذه الممارسة فهو كليات الرؤية الإسلامية(شريح، 2011، صفحة 22).

ثمة هدف إذن من وراء التأصيل في فكر شريح، هو تحقيق النهضة الحضارية، وهذا ما يؤكد أن هاجس النهضة كما ألمحنا سابقا ظل المحرك الأساس لأي عملية فكرية باختلاف توجهاتها وأدواتها، رغم أن المراد بالنهضة نفسه قد يعتوره الكثير من اللبس والاختلاف، فهل هي النهضة التي تجعل الإنسان وكرامته غايتها ، أم النهضة التي تجعل العرب والمسلمين قادة على الإنسانية من جديد ، والمعطى هنا قد ينشغل بالتوسع العسكري الامبريالي والترف الاقتصادي وربما كان اسما جامعا لكل ما يتصوره العرب عن النهضة الحضارية باختلاف النماذج التي يجعلونها ممثلة له(الجابري، الصفحات 21-61)

مسألة ثانية قد توقع الباحث في التساؤل ضمن ما يقدمه "عادل شريح" في تعريفه للتأصيل، ونقصد بها الأصل المتمثل في الكليات الإسلامية ، التي حاول أن يقدم لها توضيحا مؤداه أنها السيرورة الحياتية التي تتحرك وفق الخط الزمني ولا تقبل الثبات وبالتالي فهو تتطلب سعيا حثيثا لإدراكها ومن ثم بيان موقعها من الرؤية الإسلامية، وهذه الكليات ليست بديلا عن مرجعية الكتاب والسنة بوصفهما المرجعية الشاملة للحياة الإسلامية لأنها مستمدة منها أصلا، إنما هي حلقة وصل لربط الحراك الثقافي في العالم الإسلامي بالمرجعية الأساسية: مرجعية القرآن والسنة(شريح، 2011، صفحة 23)

يتضمن حديث الباحث عن هذه الكليات محاولة لاستنساخ الجهد الذي قام به الأصوليون في ما يتعلق بالأحكام الفقهية، وذلك في نظره راجع إلى كون علاقة الأحكام الفقهية بأصولها صارت علاقة مباشرة في حين كان الخلل الذي وجب إصلاحه في ابتعاد المستجدات الحياتية عن الأصول الإسلامية بسبب تنوع أشكال الحراك وتعددها في الدوائر الثقافية والمجتمعية وتنوع مصادر التأثير فيها وخاصة في عالمنا المعاصر(شريح، 2011، صفحة 24)، وهذا الطرح الذي يقدمه الباحث يعيد علينا دون أن يكون قاصدا له بالضرورة ما عرف بفقه النوازل عند المغاربة(*) (الصمدي، 1428 هـ)، بحكم أن النازلة في مفهومهم مستجدات الوقائع التي يستفتي الناس العلماء بشأن موقعها من الحلال والحرام ، وذلك لابتعادها كنوازل عن النصوص الشرعية التي تحدد أحكام الوقائع.

وهذا الفهم لمسألة التأصيل يوجب توفر هيئات تتابع شأن هذه النوازل تكون مؤهلة للبت في مثل هذه الحادثات، وبالتالي فمفهوم رجل الدين الذي يكتفي بتقديم الحلول في مايتعلقبأحكام العبادات قد يكون غير مؤهل إذا اضطلع بدور كهذا يفترض معرفة موسوعية وقد يتطلب عملا جماعيا بدل الفردي وهكذا، وهذه المتطلبات توحي بضرورة أن يكون كل مثقف في تخصصه متكونا تكوينا شرعيا يؤهله للنظر في ميدان تخصصه زيادة على معرفته الشرعية بما يناسبه.

وذلك لأن الكليات الإسلامية كما يورد الباحث هي مجموع الأصول التي يبنى عليها الفكر الإسلامي وهي: الإيمان بالله، وبوحدانيته، ربط الحياة بحياة أخرى غيبية تجعل الهدف من الوجود الإنساني مرتبطا بالدارين معا، بالإضافة إلى منظومات القيم التي حكمت الحياة الإسلامية وشكلت أساسا لعلاقة حضارة الإسلام مع الحضارات الأخرى وكذا المناهج المعرفية الإسلامية وارتباطاتها الأخلاقية(شريح، 2011، صفحة 26/25/24)

هذا إذن التصور الذي يقدمه الدكتور عادل شريح عن مفهومه للتأصيل، وهو كما يظهر وثيق الصلة بالفكر الإسلامي ، أو لنقل أنه يسير وفق توجه إسلامي يجعل عملية التأصيل منوطة بالأصل كما فهمه علماء الأصول ، ولذلك فحري بنا أن ننبه أن المسعى الذي يحاوله الباحث مندرج تماما في المسعى العام الذي يراد به أن يكون

التأصيل إسلاميا يأخذ قوامه المعرفي من الاقتناع التام بجدوى التشبث بالأصول الإسلامية، وتحت هذا المسعى العام تتدرج مساعي جزئية يمكن أن نجد منها مشروع أسلمة المعرفة الذي يقدمه الدكتور اسماعيل الفاروقي نيابة عن أعضاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي(*)، بالإضافة إلى محاولات تأصيل العلوم الاجتماعية وعلم النفس إسلاميا.

3. التأصيل وأسلمة المعرفة:

غير بعيد عن اجتهادات الدكتور شريح، تطالعنا الخطة العامة لمشروع أسلمة المعرفة، ومعها أيضا مجموع الدراسات التي سخرت لتحقيق التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية والإنسانية، بمجموعة من التعريفات التي تتقارب محاولة وضع التصور العام لما يراد بمفهوم التأصيل الإسلامي، ويقدم الدكتور اسماعيل الفاروقي تعريفا لإسلامية المعرفة يقضي بأنها " إعادة صياغة المعرفة على أساس من علاقة الإسلام بها، أي إعادة تحديد وترتيب المعلومات، وإعادة النظر في استنتاجات هذه المعلومات وترابطها وإعادة تقويم النتائج، وإعادة تصور الأهداف، وأن يتم ذلك بطريقة تمكن من إغناء وحدة قضية الإسلام" (الفاروقي، 1981، صفحة 54) ، وإسلامية المعرفة استعمال اصطلاحي ناشئ عن الفكرة العامة التي يقدمها المعهد أي أسلمة المعارف، ومصطلح الأسلمة في أصله ترجمة للمصطلح الانجليزي islamizationوهي كلمة من وضع الشيخ جعفر إدريس(*) عبر محاضرة باللغة الانكليزية قدمها في مؤتمر العلماء الاجتماعيين المسلمين دعا فيها إلى أسلمة العلوم، محددا مفهوم أسلمة العلوم بأنه بناؤها على أصول الإسلام الثابتة والتقيد بالأخلاق الإسلامية في البحث.(الصبيح، 2002، صفحة 470) .

ورغم أنه صار علما متعارفا عليه على إرادة التأصيل المعرفي إلا أنه قوبل برفض من قبل بعض الباحثين بالنظر إلى مسألتين تتعلق الأولى باشتقاقه اللغوي المجانب للصواب، والثانية بالمحمول الديني فيه وهو المحمول الذي يجعل نسبته إلى المعرفة والعلم مصادرة على المطلوب بحكم أن العلوم لا توصف بالإسلام لأن الإسلام يقتضي إرادة واختياراً من المسلم، والعلوم جامدة لا إرادة لها ولا اختياراً، ولهذا لا توصف بإسلام ولا كفر.(الصبيح، 2002، صفحة 470)

وهذه القضية، أي وسم التأصيل بكونه إسلاميا تتواتر بدورها في مصطلح آخر هو التأصيل الإسلامي ونجده لدى بعض المهتمين بعلم النفس أيضا والعلوم الاجتماعية وهو مصطلح انعقدت تحت رايته ندوة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية معرفة إياه تعريفا لا يكاد يختلف عن التعريفات التي أعطيت لـ"أسلمة المعرفة «فهو..." تأسيس تلك العلوم على ما يلائمها في الشريعة الإسلامية من أدلة نصية أو قواعد كلية أو اجتهادات مبنية عليها، وبذلك تستمد العلوم الاجتماعية أسسها ومنطلقاتها من الشريعة ولا تتعارض في تحليلاتها ونتائجها

وتطبيقاتها مع الأحكام الشرعية، ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أن تدخل العلوم الاجتماعية في إطار العلوم الشرعية وإنما المهم ألا تتعارض معها.

ولا تتعارض عملية التأصيل بهذا المفهوم العام مع أي تقدم علمي وتطور منهجي لا يناقض المنهج الإسلامي على أساس أن الإسلام دعا إلى العلم وحث عليه"(رجب، 1424هـ، صفحة 123)، فالعماد المشترك إذن عند أنصار التأصيل في صورته الإسلامية منوط بثوابت توجه المعرفة وتنتقي منها ما لا يتعارض مع نصوص الشرع، وخاصة في ما يتعلق بالمرجعيات المؤسسة للمعارف الغربية نفسها أو لنقل بأن عملية التأصيل الإسلامي كما يراد لها تتوخى بادئا تحوير المسيرة المنهجية والمعرفية للعلوم الوافدة وعلى رأس ذلك تخليصها من الأساس الوضعي الإلحادي الذي انبثقت عنه، وهو أساس قد تنهدم بنفيه أهم أركان المعرفة الوضعية القائمة على ثنائية الحقيقة أمام القول بوحدانية الحقيقة عند المؤصلين الإسلاميين.

4. أسلمة المعرفة: المبادئ والأسس

زيادة على السابق، تحدد اللجنة مجموعة من المبادئ والأساسات التي يفضي الالتزام بها إلى تحقيق مبتغاها من عمليات التأصيل الإسلامي، هي المبادئ التي نعرضها من خلال العناصر التالية:(رجب، 1424هـ، صفحة 123)

1 - وضع تصور إسلامي متكامل عن الإنسان والمجتمع والثقافة بحيث يمثل الإطار الفكري العام لدراسة القضايا والموضوعات المطروحة في مجال العلوم الاجتماعية .

2 - وضع منهج إسلامي متميز لتلك العلوم يطلق عليه المنهج الإسلامي ينبني عليه قيام مدرسة متميزة في العلوم الاجتماعية تسمى المدرسة الإسلامية في العلوم الاجتماعية .

3 - العودة إلى الأصول الإسلامية، والتراث الإسلامي القويم عند دراسة القضايا التربوية والاجتماعية والنفسية للاستفادة من هذا التراث .

4 - إبراز المبادئ والمسلمات والمفاهيم والمنطلقات التي تعبر عن التصور الإسلامي للعلوم الاجتماعية، وتصحيح النظريات والمفاهيم الاجتماعية على ضوء ذلك .

5 - عرض نتائج البحوث الاجتماعية على القواعد الإسلامية والتصورات الصحيحة فما انسجم معها قُبل، وما تعارض معها رُفض، وما كان جديداً لا يناقض الحقائق والمسلمات الإسلامية قبل باعتباره إضافة سليمة إلى المعرفة.

إن التعريفات التي يقدمها أنصار التأصيل في توجهه الإسلامي تكاد تتطابق(خليل، 2006، صفحة 09)، ويمكن إعادة صياغتها استنادا إلى تعريف قدمه "إبراهيم رجب" فحواه أن التأصيل الإسلامي هو "بلورة أبعاد التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والكون، واستخدام هذا التصور كأساس معرفي تنطلق منه العلوم الاجتماعية ليكون موجهاً لنظرياتها ومفسراً لحقائقها ومشاهداتها التي ثبتت صحتها بالتجربة، أو الدليل العلمي المحقق(رجب، 1424هـ، صفحة 125) ، أو أنه عبارة

عن عملية إعادة بناء العلوم الاجتماعية في ضوء التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والوجود، وذلك باستخدام منهج يتكامل فيه الوحي الصحيح مع الواقع المشاهد كمصدر للمعرفة، بحيث يستخدم ذلك التصور الإسلامي كإطار نظري لتفسير المشاهدات الجزئية المحققة والتعميمات الإمبريقية وفي بناء النظريات في تلك العلوم بصفة عامة(الصبيح، 2002، صفحة 476).

5. أسلمة معرفة أم تأصيل إسلامي؟

رغم ما نجده من نقاط الالتقاء بين أفياء المفكرين الإسلاميين حول هذه المسألة إلا ذلك لم يمنع من وجود بعض التعارضات الفكرية والاصطلاحية التي يمكن أن نمثل لها برأي محمد قطب الذي يتخير لنفسه مصطلح "التأصيل الإسلامي" بدل الأسلمة اقتناعا منه بأن كثيرا مما كتب في مجال " أسلمة العلوم " لم يكن تأصيلا إسلاميا حقيقيا بالمعنى المطلوب ، بقدر ما كان اعتمادا للمفاهيم الغربية، مع وضع "طلاء" إسلامي عليها، يتمثل في بعض الآيات والأحاديث التي يرى مستخدموها أنها تناسب الموضوع(قطب، 1998، صفحة 49)

وعندما نقرأ التصور الذي يريده "قطب" من التأصيل الإسلامي نجده لا يزاور كثيرا عن التصور الذي قدمه أصحاب "إسلامية المعرفية" أنفسهم، وذلك لأن الذي يعيبه عليهم قطب قد يقع منهم أثناء المراس التطبيقي، ولكنهم على الصعيد النظري يشتركون جميعا فيما يرمي إليه.

ويحدد محمد قطب ملامح للتأصيل الإسلامي بأنه "عمل مختلف)عن إسلامية المعرفة.(. إنه الانطلاق ابتداء من منطلق إسلامي، سواء التقى بعد ذلك في بعض الجزئيات أو لم يلتق مع ما كتبه الغرب في تلك العلوم. فليس القصد الالتقاء لمجرد الالتقاء، ولا الاختلاف لمجرد الاختلاف. إنما القصد التعرف على التصور الإسلامي، وزاوية الرصد الإسلامية، ثم الانطلاق منها إلى حيث تؤدي بنا باستخدام الوسائل العلمية المشهود لها، والتي تناسب البحث المطلوب.(قطب، 1998، صفحة 49)

وهذا الذي يحاوله "قطب" يثير لدى الباحث قضية خطيرة تتعلق بنقطة الانطلاق في عمليات التأصيل هل تكون ابتداء بالآخر نحو الذات أم العكس؟ أي من الذات نحو الآخر؟ وهذا السؤال من الأهمية بمكان خاصة ونحن نرى أن أهم صبغة اصطبغت بها المحاولات التأصيلية أنها لم تكن إلا عبر تحفيز آخري /غربي، ولم تكن نتاج حاجة ملحة فرضها الواقع العربي الإسلامي إلا فيما ندر، وهذا الأمر الذي يلقي بظلاله على عمليات التأصيل بكل توجهاتها يجعل منه هو الآخر موجها توجيها غربيا.

ومع أننا هنا لسنا في معرض مناقشة المعوقات التي تعترض سبيل العمليات التأصيلية، غير أنه ومن تمام الإفادة، الإشارة إلى أن الاصطلاح نفسه لم يسلم من تغلغل الفكر الغربي، وذلك في المقترح الذي يقدمه فؤاد أبو حطب بديلا عن تسمية التأصيل الإسلامي(الصبيح، 2002، صفحة 476)، حيث يقترح "أبو حطب" مصطلح

التوجيه الإسلامي منطلقا فيه من ترجمة مصطلح البراديغمParadigmالذي أقره "توماس كون" بالوجهة ، ومن ثم اشتق منه مصطلح التوجيه الإسلامي أي إعادة إنتاج معرفة علم النفس داخل أطر معرفية جديدة هي الأطر التي نشأت فيها المعارف الإسلامية، ولكن الإشكال الذي يطرح نفسه الآن هو أن التأصيل يتموقع ضمن مجال يخول له الاشتغال كنظرية في المعرفة وذلك من خلال قيامه على مايشبه أداة للتحقق المعرفي، وإذا تم الاستنجاد فيه بنظريات العلم الغربية مثلما هو الحال مع "توماس كون"، فإن ذلك سيعيد المشكلة إلى أصل نشوئها وهو الرغبة في التحرر من التبعية وضرورة البحث عن منجز أصيل.

إن قيام التأصيل على قاعدة المحفز الغربي سترهن أغلب نتائجه ومنجزاته ضمن دائرة التفكير الغربي، بمعنى أن أغلب هذه المنجزات ستكون سالكة أحد طريقين أولهما الإتباع وهذا في حال لم يكن ثمة تعارض بين النظرية الغربية والكليات التي ينطلق منها المؤصل، وإما المخالفة وهنا يكون إعطاء البدائل ضروريا لإتمام المسيرة.

والقول بأن هناك بدائل أصيلة للمعطيات الغربية المتعارضة مع أصول المعرفة والثقافة الإسلاميتين فيه بعض الغلو ، ولذلك فالمنطلق الأجدر بالبناء عليه هو المعطى الإسلامي نفسه ، وهذا هو الذي يشير إليه "قطب" في قوله: حين يكون هدفنا التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية فنقطة البدء التي ننطلق منها هي التعرف على صورة الإنسان كما تعرضها المصادر الإسلامية (...) وحين نجد الإجابة الصحيحة، نكون قد خطونا الخطوة الأولى التي نأخذ بعدها في التطبيق على كل علم بمفرده، مستندين إلى ذلك التصور العام الذي تلتقي وتتفرع عنه كل العلوم(قطب، 1998، صفحة 50)

6. من التأصيل الإسلامي إلى التأصيل الثقافي:

في سياق يبدو أكثر عمومية واتساعا من ميدان تأصيل المعرفة، تأتي جهود الباحث "محمد شاويش" لتقدم نموذجا يراد به الظفر بمفهوم للتأصيل يتسع ليلقي بظلاله على كل مظاهر الحياة مركزا على القضاء على حالة الاستلاب بما هي حالة نفسية على المستويين الفردي والجماعي اعتقاد" بدونية الذات الحضارية والثقافية اعتقادا يبعث على محاولة التنكر لها وتخيل إمكانية استبدالها بذات عليا أو مثالية.(2)"

ورغم ضبابية المفهوم الذي يقدمه "شاويش" للتأصيلية التي يرومها، إلا أن الملامح التي تتمظهر للقارئ عبر ما يقدمه من تبيان لملامحها، تجعلها تقف كإرادة لتحقيق فاعلية الثقافة الشعبية والجماهيرية أو بتعبير آخر هي محاولة لربط الذات الجمعية العربية الحديثة بالذات الجمعية العربية القديمة، إنها تبدو بتعبيره كاتجاه عام في مسائل الثقافة يريد أن يركز على تميز الذات الثقافية والحضارية العربية الإسلامية تميزا يقضي على أي سبب للاستلاب الثقافي والحضاري، وأحيانا أخرى لاتكتفي بهذا الموقف شبه الأكاديمي بل تخوض غمار الجدل السياسي حيث تؤكد التزامها المجتمع الأهلي الذي أخرس واستبعد كليا من ساحة القرار.(3)

وتبدو الملامح التي يقدمها "شاويش" أقرب ما تكون إلى الشعارات السياسية العامة التي تفتقد الأسس المعرفية المفتقرة إلى عمق فلسفي يحدد مرادها وخطة سيرها وأدواتها تحديدا منبثقا عن دراسة متأنية للمشكلة التي انطلق منها، فليس غريبا حين يصطدم القارئ بدعوات لا تكاد تتفق بينها من طراز تصريحه باختلاف التأصيلية عن الأصولية من حيث كانت هذه الأخيرة بعيدة عن الأصول التي هي في عرف"شاويش"الذات الاجتماعية والثقافية للعرب والمسلمين(1) رغم أن هذه الذات نفسها لم تكن كذلك لولا انطلاقها من الأصول التي يبنى عليها الأصوليون رؤاهم.

ثم إننا بافتراض الاختلاف بين التأصيلية كما يقدمها وبين الأصولية فإن الذي يفهم من كلام "شاويش" أن الأصول التي يقوم عليها التصور الأصولي ثابتة ، في حين يبدو أنه يقر بمسألة التطور أو التغير الديني خاصة عندما يعيب على الأصوليين مثلا مسألة رفضهم لما يسميه بأشكال الدين الشعبي التي يقصد بها التنويعات التي أحدثتها بعض الطوائف الإسلامية في الدين وهي التي تأخذ معنى البدعة عند الأصوليين، وهي في نظره مكونات رئيسة من مكونات الذات الثقافية رغم أنها تناقض الكثير من النصوص الدينية، وبعد كل ذلك نجده يحدد مراده من التأصيل بالمراد نفسه الذي يقوم عليه مفهوم التجديد الديني عند الأصوليين . (1)

بالإضافة إلى ذلك يقدم "شاويش" في موقع آخر قولا تبدو معه التأصيلية التي يريدها أقرب ماتكون إلى انتقائية مما يعترك في المشهد السياسي والاجتماعي من توجهات خدمة للمجتمع ، يقول : إن السير في هذا الاتجاه، اتجاه التقارب بين المخلصين من التيارات الوطنية العربية: اليسارية والقومية والإسلامية يمكن أن يقودنا إلى اتجاه جديد، اتجاه تأصيلي يأخذ بعين الاعتبار أمرين أساسين: الالتزام بهوية الجموع والانحياز إلى مصالح الأغلبية ضد الاستكبار الخارجي والشرائح الموالية له في الداخل، اتجاه يأخذ من اليسار موقفه ضد الاستغلال و القهر الطبقي ويأخذ من التيارات السياسية الثورية التقليدية تمسكها بالهوية الثقافية والحضارية... ومن التيارات الدينية ما تشترك فيه هذه مع التيارات التقليدية من وطنية.(3)"

إن المفهوم الذي يتضح من تصور "شاويش" يخالف التصور السابق الذي كان يجعل الكليات الإسلامية أو الرؤية الإسلامية فيصلا في الانتقاء كما أنه لا يعبأ بالماضي كثيرا مقابل تركيزه على الحاضر زيادة على كونه، لا يقدم مرتكزا ابستمولوجيا واضحا لمشروعه، وقد أسلفنا أنه بهذا يكاد يكون شعارات سياسية أكثر من كونه دعوة ثقافية أو معرفية ، بحكم أن مايجعله الركيزة الأساسية للتأصيلية التي يريدها هو الذات الجماعية التي اجتهد أن يقدم لها مفهوما متعلقا بالهوية التي تؤطرها ، إلا أن ذلك لا يعصم هذا التصور من الهشاشة المعرفية التي تطال أجزاءه بحكم افتقاره في حد ذاته إلى الأصالة المعرفية والثقافية.

وذلك لأن المشكل الذي انطلق منه الفكر التأصيلي في الغالب هو استعصاء النماذج الدخيلة على النفاذ إلى بنية الثقافة العربية والإسلامية بالنظر إلى عدم توافق البيئات،

ولذلك فإن اقتناص نماذج مختلفة التوجهات ورصها جنبا إلى جنب لصياغة مشروع ثقافي لا يعدو أن يكون إلا حلا تسطيحيا جاهزا شأنه شأن الاقتصار على النموذج الأحادي الجاهز.

7. خاتمـــــــــة:

رغم مشروعية المسعى الذي تتوخاه الدراسات التأصيلية للعلوم الإنسانية، إلاأن حجم التحديات التي يواجهها يبدو أكبر من أن يختزل في ربط الحاضر بالماضي، كما أن الاختلاف الحاصل في صياغة جهاز اصطلاحي موحد بين المهتمين بهذا الوجه البحثي وسع من دائرة الاشكال وعمقه، وحتى تكون ثمة جدية في استنبات منجز علمي انساني في بيئة مغايرة وجب - كبداية لحل الأزمة - الانطلاق من الواقع الذي يكتنف هذه البيئة المغايرة، وذلك لأن راهن البيئة يتملك خصوصية تبدو مختلفة عن ماضيه وعن حاضره المختلف معه مكانيا وحضاريا، ولذلك سيكون من الصائب فهم واقع المشكلة قبل الانطلاق في عمليات التأصيل والتبيئة الحضارية للعلوم الإنسانية، مما يختصر على الباحثين المسافة لإدراكهم للنقائص والفجوات التي وجب سدها وذلك استنجادا بالمنجزات الغربية والعربية القديمة لرفد الحاضر وتحيينه ودفعه نحو مستقبل منتج.

إن طموحا معرفيا بجسامة التأصيل المعرفي والثقافي، لن يكون في وسعه أن يتجسد عبر مجهودات فردية متفرقة مهما بلغت من الحصافة العلمية، ولذلك فالأمل معقود على تظافر الهيئات ومراكز البحث لتشكيل فرق بحث موسعة يكون هذا الهم المعرفي هدفها الدائم من البحث والمتابعة، الشيء الذي سيفضي إلى تظافر رؤى متعددة في خدمته ويوسع دوائر الاشتغال عليه، كما ييسر على الباحثين الاستفادة من المطبات التي تجابه محاولة تجسيده

8. قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم عزت رجب، مداخل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، مجلة ثقافتنا، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، إيران، العدد الأول 1424 هـ.
2. إسماعيل الفاروقي، إسلامية المعرفة: المبادئ العامة- خطة العمل- الانجازات، تر: عبد الحميد أبو سليمان، نشر مشترك بين الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، أمريكا 1981.
3. عادل محمد شريح، فكر التأصيل المنهج والفلسفة، دار الفكر، دمشق 2010.
4. عبد الله بن ناصر الصبيح، التأصيل الإسلامي لعلم النفس،مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد 22، السنة 22، ص469-506.
5. عماد الدين خليل، مدخل إلى إسلامية المعرفة، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-بيروت 2006.

6. كمال عبد اللطيف، تأصيل العلوم الإنسانية في الفكر العربي المعاصر، الشروط المعرفية والتاريخية، مجلة أدب ونقد، ع 18، ابريل 1999.
7. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1994
8. محمد قطب، حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، دار الشروق، القاهرة 1998.
9. محمد محمود شاويش، نحو ثقافة تأصيلية، البيان التأصيلي دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا 2007.
10. مصطفى الصّمدي، فقه النوازل عند المالكية تاريخا ومنهجا، مكتبة الرشد، 1428 هـ.